

## ٦ - بين القاهرة وطوس

نيسابور

للدكتور عبد الوهاب عزام

برحنا سبزوار والساعة ثمان من صباح الخميس ثاني رجب سنة ١٣٥٣ (١١ أكتوبر سنة ١٩٣٤) فضربنا في السهل صوب الشرق نصف ساعة . ثم ارتقينا جبلاً هبطنا منه إلى سهل فسيح ، وهكذا رأينا إيران ما بين قصر شيرين وطوس ، سهولاً تحيط بها جبال ، فما يزال المسافر على جبل أو في سهل يفضى البصر فيه إلى جبل حينما توجه . هبطنا سهلاً كثير الشجر والزرع ، قد انتشرت القرى في أرجائه ، تحيط بها الأشجار الباسقة ، ورأينا زروعاً شتى منها البطيخ والقطن . ورأينا لوز القطن قد تفتح ، ولما تعدد الأعواد ذراعاً

وبعد مسيرة ساعة وربع من سبزوار ، زلنا بقية على الطريق اسمها شوراب ، فأكلنا من عنبها واسترحنا قليلاً . ثم استأنفنا السير لتقاء نيسابور والقلوب يملؤها الشوق ، والفكر يستجمع ما وحي من أحاديث التاريخ عن المدينة العظيمة ذات المياه والقرى والأشجار - المدينة ذائمة الصيت في العلم والأدب التي نشأت علماء يفتخر بهم المسلمون على الأدهار ، بلد مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح ، والحاكم المحدث الكبير ، وأبي القاسم القشيري صاحب الرسالة ، ومحيي الدين النيسابوري الفقيه ، وفريد الدين العطار وعمر الخيام - المدينة التي يقول فيها الخيام شراب نيسابور وآب دبير جواني كندگر خورد مردبير وترجمته ( شراب نيسابور وماء دبيرردان الشيخ إلى شبيهه ) ويقول الأوربي :

حبذا شهر نيسابور كه در بشت زمين

گر بهست است همين است وگر نه خود نيبست  
وترجمته « حبذا مدينة نيسابور ؛ إن يكن على ظهر الأرض  
جنة فهذه ، وإلا فلا جنة »

نيسابور مدينة أزيلية ، يروى الفرس أن بابنها طهمورث ثالث الملوك البشدايين ، وأن إسكندر الكبير خربها ثم عمرها شابور الملك الساساني فسميت باسمه . وقد عرفها اليونان القدماء

وسموها نيسوس . ويقال لهم سموها كوس إله الخمر ديونيسوس أي إله نيسابور

وقد تماقبت عليها البناة من الساسانيين والعرب والفرزويين والسلاجقة كما تواتت عليها النوائب من الزلازل والفتارات في عصور شتى . أصابها زلزال عظيم سنة نيف وخمسة من الهجرة سنة ٦٦٦ وسنة ٨٠١ . ودمرها الشتر سنة ٥٤٨ حين غلبوا السلطان سنجر السلجوقي وأسروه . وهي المصيبة التي نظم فيها الأوربي الشاعر الفارسي قصيدته المعروفة « دموع خراسان » ولكن المدينة على رغم هذه المصائب كانت في معظم العهد الإسلامي قبل التتار عاصمة مزدهرة حتى سميت أم البلاد وقبة الاسلام وقد رووا في عمرائها ونضرتها ما يستبده العقل . فمن عجائبها الاثني عشرية أنه كانت بها اثنا عشر معدناً للفيروز والنحاس والرمز وغير ذلك . واثنا عشر نهراً تنحدر من الجبال ، واثنا عشر مائة مدرسة ( أي ألف ومائتان ) واثنا عشر مائة قرية ، واثنا عشر ألف قناة تجري من اثني عشر ألف ينبوع

قال باقوت ، وهو ممن أدركوا غارات التتار :

« وأصابها الفز في سنة ٥٤٨ بمصيبة عظيمة حيث أسروا الملك سنجر وملكوها أكثر خراسان ، وقدموا نيسابور ، وقتلوا كل من وجدوا ، واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يعرف ، وخربوها وأحرقوها ، ثم اختلفوا فهلكوا . . . واستولى عليها المؤيد أحد ممالك سنجر فنقل الناس إلى محلة منها يقال لها شاذباخ وعمرها وسودها ، وتقلبت بها أحوال حتى عادت أمير بلاد الله وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلاً وأموالاً لأنها دهليز الشرق ، ولا بد للقوافل من ورودها . » وقال بصفها قبيل غارة التتار : « وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات » وقال : « لم أرفيا طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها »

ثم كانت القارة التي دمرت حضارة الاسلام - كارثة التتار - فأحرقوا وهدموا ، وقتلوا وسبوا وسلبوا ، وتركوها خاوية على عروشها ، ولم تنسها المصائب من بعد ، فقد أثار عليها الأزيك وغيرهم في عصور مختلفة

ذكرنا هذه الخطوب ونحن قادمون على نيسابور ، ولكن خيال المدينة الكبيرة المزدهرة المزدهمة بمساجدها ومدارسها كان يقلب علينا فتمنى النفس رؤية نيسابور في زينتها وجلالها وردناها والساعة عشر وثلاث فأبصرنا إلى يسار الجادة قرية

كنا لاعبين على نطح هذا الوجود ، فعدنا إلى صندوق المدم  
واحدًا بعد الآخر<sup>(١)</sup>

وعلى الصفحة الثالثة ربايعتان :  
ظهر بحر الوجود من الخفاء ، وما استطاع أحد أن يثقب  
جوهره الحقيقة هذه ، كل تكلم بما بهوى ، وما قدر أحد أن  
يبين عن الحقيقة

ليس عندنا يقين ولا حقيقة ، ولا استطاع تزجية العمر كله في  
رحاء هذا الشك ، هلم نأخذ أقداح الصبأ بأيدينا لا نضعها ،  
ما فرق الصاحي والسكران في هذه الجهالة ؟

وعلى الصفحة الرابعة ربايعتان :  
أولئك الذين كانوا بحار الفضل والآداب ، وصاروا في كلهم  
مصاييح الأصحاب ، لم يجدوا للخروج من هذا الليل المظلم طريقًا ،  
فخذتوا بالأساطير ثم أخذهم النوم

إن هذا الدوران الذي يتجلى فيه مجيئنا وذهابنا ، لا نستبين  
له بداية ولا نهاية ، ولا يستطيع أحد أن يخبر صادقًا من أين  
جئنا وإلى أين نذهب »

وراء قبر الخيام مزهرة جميلة كتب على أرضها بألوان  
النبات : « حكيم عمر خيام » ، ورأينا بجانب القبر خاوية ، كأن  
واضعها رأوا مناسبة بينها وبين قبر الشاعر الذي كان مستمترًا بالخرم .  
وقرأت على هذه الخاوية أنها موقوفة على مسجد إمام زاده محمد  
المحروق . فقلت قد وضعت في غير موضعها ، وقرنت بما هي منه براء  
وقد مُدَّ وراء قبر الخيام رواق كبير وضعت فيه كراسي

للجلوس ومدت فيه موائد الطعام  
استراح الوافدون قليلاً واجتسروا ما شاءوا من أصناف  
الشراب ثم وقفوا يشربون على ذكر الخيام ، قلت بئس ما ذكرتم  
صاحبكم ! وانتبذت أنا وزميلي الأستاذ العبادي جانباً وتركنا القوم  
وخيامهم . وقلت لبعض رفقاتنا الإيرانيين أين قبر المطار ؟ فلا  
بد لقدام نيسابور أن يزوره ، فيسر لنا السير إليه فذهبت أنا  
وبعض الحاضرين إلى قبر المطار . سارت بنا السيارات في طريق  
غير معبدة فأنتمينا إلى حديقة ذابلة الشجر والزهر ، وفي وسطها  
بنية ثمانية عليها قبة ، ولجنا الباب خاشعين إلى قبر عال عليه  
كسوة خضراء ، وإلى رأسه عمود أسود أطول من القامة قليلاً

(١) إشارة إلى لبة الشطرنج

هي بقية الأحداث من نيسابور ، كما يبقى من الجنة الناضرة عود  
يابس ، أو من الرجل العظيم قبر دارس

ماتت المدينة فلم يبق إلا أن زور قبرها فيما بقي من قبور  
أبنائها ، فيها نحن أولاء نسرع السير إلى قبر عمر الخيام . وقفت بنا  
السيارات بمد قليل على حديقة بعيدة من البلد فدخلنا بستانًا  
كبيراً تتوسطه طريق واسعة ، فهبطنا درجات إلى مستوى سرنا  
به خطوات ، وهبطنا إلى مستوى آخر ، وبجانبتنا قناة تتحدر إلى  
المستوى الأسفل فتفضي إلى حوض في وسط الطريق . وتنتهي  
الطريق إلى مسجد صغير جميل نقشت على بابه آيات من القرآن ،  
واسم الشاه طهما سب الصفوى الذي بناه . وفي المسجد ضريح  
لأحد أبناء الأئمة من آل البيت النبوي رضي الله عنهم ، واسمه  
محمد المحروق وينتهي نسبه إلى زين العابدين علي بن الحسين  
وإلى عيين السجد مصطبة لها درجات قليلة ولها سياج من  
الرخام وفي وسطها عمود كتب على أوجهه آيات من الشعر .  
فهذا قبر عمر الخيام . وقد سمعت ممن زاروا القبر قبلاً أنه كان في  
طاق في جدار المسجد ( وفي جدار المسجد على جانبي الباب  
طاقان ) ثم نقل إلى هذا الموضع

لم بمجئنا قبر الخيام ، فقلت لوزير المعارف ، كان ينبغي أن  
تكون بجانب القبر أشجار تهطل أغصانها عليه ، وتثر الأزهار  
فوقه كما وصف الخيام قبره قبل موته ، وكنا رأه نظائى العروض  
بدموت الخيام فوجده مصدقاً لما قال . قال نعم . لا بد أن يكون  
كما وصفت

كتب على صفحة من العمود : « الحكيم عمر الخيام - وفاة  
الحكيم سنة ٥١٧ هجرية - » وفوق ذلك ربايعية من نظم ملك  
الشعراء بهار ترجمتها : اجلس إلى قبر الخيام واقض الوطر ، وابتغ  
فراغ ساعة من غم الأيام . إن تسأل عن تاريخ بناء مرقده فهو  
« أطلب سر القلب والدين من قبر الخيام » ( راز دل ودين  
زقبر خيام طلب )

وعلى الصفحة الثانية ربايعتان ترجمتهما :  
عاد السحاب يبكي على المشب الأخضر ، فلا يبني العيش  
بغير الخمر الحمراء . هذا المرج مسرح أبصارنا اليوم ، فليت شعري  
من يبرح بصره غداً في أعشاب قبورنا ؟  
نحن لُعب ، والفلك بنا لاعب ، حقيقة هذه لا مجاز فيها ،

حمة العطار توقظك حتى لا تخلو لذة من ألم<sup>(١)</sup> إن نبتغ  
الحبيب فلا بد من السمي الجاهد ، وإن ترد اللذة (نوش) فلا بد  
من الحمة (نیش) . إن تكن ذقت حلاوة الخيام ، فوخزة العطار  
خير يا عزام

من يخرّك يوقظك من الغفلة ، ومن ينعّمك يدعك في غمرة .  
وخزة اليقظة تمدك من الضلال ، واللغو ينأى بك عن السداد ،  
وانبعثت حينئذ من هذا الحدث صيحة بينة مفصحة وعمها  
أرواحنا :

« يا من اختلط وجوده بالدم ، وامتزجت لذته بالألم !  
إذا لم يتداولك الهبوط والصعود ، فكيف تعرف نفسك في  
هذا الوجود<sup>(٢)</sup> »

رجعنا من العطار الى الخيام فذكرت في الطريق قول  
حافظ الشيرازي . . .

(يتبع) عبد الوهاب عزام

(١) في الأصل « نيش ونوش » أي الوحزة واللذة وما كلتان مقترتان  
في الأدب الفارسي تقارب اللفظين  
(٢) هذان البيتان للعطار نفسه

عليه آية أنكرسي وأبيات في مدح الشيخ فريد الدين العطار .  
لبننا برهة في حصرة شيخ الصوفية الحليل ، والشاعر المفلح المكثر  
الذي نظم زهد ، ثلاثين منظومة فيها أكثر من ألف ألف بيت -  
ناظم منطق خبير . والسهي نامه ، وأسرار نامه ، وجوه الذات الخ  
ومؤلف تذكرة لأولياء ؛ ثم يؤثنا بغير ما بآه أصحاب الخيام ،  
والقلب حسيه . والذكرى الجليلة آخذة على النفس آفاقها  
وهنا صيغة لا يسمي إهالها :

بينما أخرج من باب حديقة العطار أحسست بوخزة في كفي  
فظننت زيارتي سني ، فأخبرت رفيق الشاعر الشاب النابغة  
رشيد الياسمي بضحك وقال : قبلت الزيارة . قلت : لاغرو أن  
تكون وخزة من العطار ينهني بها من الغفلة . ألم يقل معاصرو  
العطار : « يز شمره سوط السالكين » ؟ قال بلى . ثم ارتجمل  
بيتاً فارسياً

نيس عطار است ابن ، زنبور نيست

گر تحمل میکنی زو دور نيست

(هذه حمة العطار لاحمة الزنبار ، فان تحملت فهو أهل لذلك)  
فأجته شي نفور :

لسع الزنبار كني عادياً ودواءً كان شمر الياسمي  
ولم فدت مشهداً جاء الى شاعرنا النابغة وقد نظم أبياتاً  
كثيرة في هذه الواقعة أترجمها نثراً فيما يلي معتمداً اليه من هذه  
الترجمة المترجمة التي لاقى بشمره السلس ، ومعتمداً الى القراء  
عما فيها من مدح :

جاء عزام من أرض مصر المختارة الى نيسابور من أرض  
إيران ، فأراد أن يقبل تربة العطار إذ ملأت محبته روحه ، وذهب  
بدها الى مرقد الخيام فرأى مكاناً ناضراً زاهراً ، وسمع صيحات  
الطرب ، ورنات الكؤوس من كل جانب ، ورأى القلوب تفور  
بنار الصفاء . فـ عزام : أيها القلب دع بساط الشراب والسرور ،  
واعجل الى تعطار ذلك الشيخ الوقور ، فسلك الصحراء رجل  
الطريق<sup>(١)</sup> هذا حتى رأى قبراً عليه حجر أسود ، فلم سدة العطار  
وطاف في هذه البقعة المباركة . ثم صاح بفتة وقال مضطرباً : قد  
أصاب كني زنبار . قال له الياسمي : يا عالم مصر ! بل يا أيها الدر  
المتلألئ ، في بحر مصر !

(هذه حمة العطار للاحمة الزنبار ، فان تتحمل فهو لذلك أهل)

(١) الطريق هنا طريق الصوفية

ظهرت الطبعة الجبرية لكتاب

## رفائيل

صحائف سن العشرين

لشاعر الحب والجمال لاصريين

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

والقصة قطعة من شباب لامرئين ، وجذوة من  
شعوره ، ولحن من شمره . طبعتها لجنة التأليف والترجمة  
والنشر طبعة أنيقة منقحة رخيصة فاطلها منها أو من ادارة  
الرسالة أو من أي مكتبة